

تلخيص الرواية اسمي كاتسوهيكو تاكاهاشي". بدأ كل شي في عام 1967 باتصال هاتفي من سفير اليابان في الكويت: «دكتور كاتسوهيكو، لقائك». كان الأمر يتعلق حسب الدبلوماسي، بالمساهمة في بناء عاصمة بلد لم أسمع به من قبل: أبوظبي. جديدة في الكاربيبي. آنذاك كنت في الثلاثين من العمر. في نيويورك. للشبيبة. عليك إذن أن تُصغي إلي». حين أفكر في ما قلته أجد به أنني كنت بلا شك مجنوناً. أعلم أن من يتجرأ على شوغون»، كما فعلت أنا مع الشيخ زايد يصبح مجبراً على الانتحار بطريقة الهاراكيري. لكن في ذلك الوقت كان معظم المستشارين المحيطين بالشيخ زايد يمتدحون بانتظام كل ما يقترحه ولا أحد يجروا كان يجب أن تعجبه. كان الرجل المعباً ومنفتح الذهن على نحو لا يُصدق. لكن غالباً ما كنا على خلاف. أنا متأثر بالعمارة الحديث وفقاً لأسلوب كوروبوزيه» في البناء، التعليم. ومخططات جمالية عمرانية. مستقيمة، لم تكن هذه وجهة نظري. أصبحت علاقتنا أكثر تعقيداً يوم اقترحت عليه نقل العاصمة إلى منطقة المفرق، وتحويل الجزيرة (حيث العاصمة الأصلية) إلى مواقع سياحية مؤلفة من فيلات ومرافق يصلها باليابسة طريق اسفلتي. والمؤسف أن هذه الفكرة لم ترق للشيخ زايد الذي لم يرفضها فحسب بل رفض حتى النقاش فيها. أغلب الظن أن هذه الفكرة كانت أحد الأسباب التي أدت إلى إنهاء تعاوننا. أزعج أيضاً أن الشيخ كان قد سئم الاعتماد على مترجم وصار يفضل التعامل مع مهندس يتكلم اللغة العربية. ولا ، ريب في أنها كانت من أكثر المراحل التي أفدت فيها علماً وخبرة وتثقيفاً في حياتي المهنية. ولقد خرجت برصيد لا بأس به: قسم من شبكة الطرق، وبناء الطريق البحري (الكورنيش) و كما كان الشيخ يرغب - الكثير من المساحات الخضراء. ما قاله الدكتور كاتسوهيكو صحيح. فيها عاش أسلافنا. وفيها أرسى تاريخنا جذوره وتحويل الجزيرة إلى مصيف أمر لا يُعقل. في الحقيقة كان تاكاهاشي أشبه بجراح - مهندس. يا صاحب السمو، إن فعلتُ أنا ما تريد أنت فلن يكون هذا مشروع بل مشروعك». مهندساً موهوباً. وكان أن توجهت نحو منظمة الأمم المتحدة للتنمية. هذه المرة كنت أريد مهندساً عربياً مختصاً بتخطيط المدن. لقد مللت الاستعانة بمترجم دائماً. ثم إن اللغة كلما كانت غنية كانت أكثر استعداداً للتعبير والإبداع، وتلك هي حال اللغة العربية. أيأ تكن مقدرة من يتولى الترجمة لا بد أن تفوته الفروق الدقيقة دائماً. والحال أن ثمة حروباً تنشب من جراء كلمة أو تعبير أسيئت ترجمته. اقترحت على الأمم المتحدة مهندساً معمارياً. هو الدكتور عبد الرحمن حسنين مخلوف، فوافقت. وصل في نوفمبر 1968 وكنت يومها في جنيف لحضور اجتماع حول الخلاف الحدودي مع جيراننا، الذي لم يكن قد حلّ بعد. لم يضع الدكتور مخلوف وقته منذ اللحظة التي حلّ فيها عندنا. وفي هذا نقطة إيجابية لصالحه في نظري. بعيداً عن الوسط نسبياً. لا أملك أي تصميم للعاصمة. أجابني بأن هذا لا يطرح أي مشكلة وأنه قادر على وضع تصميم في مهلة أسبوعين. أعترف بأني بدوت كالمتشكك. غير أن هذا ما فعله مستعيناً بالمخطوطات الإجمالية التي وضعها من سبقوه، لم ينجح في احترام المهلة التي التزم بها فحسب بل نجح أيضاً في تحويل وحدات القياس الأجلو- سكسونية إلى النظام المتري. حظي الرجل بتقديري فوراً. بكل موضوعية. لا أظن أن ثقتي به كانت لكونه عربياً ولا لكونه مسلماً، ولا على لون بشرته. ذلك أننا خلق الله وخياره جميعاً. كان مخلوف متأثراً جداً بالفيلسوف اليوناني أرسطو الذي كان يرى أن الدولة المثالية يجب أن تكون من أجل سعادة مواطنيها في المقام الأول. وتخطيط المدن مهمة إجتماعية قبل كل شيء. كان لمخلوف معلّمون درسوا في جامعات فرنسا وليس إنجلترا وهم من كبار المهندسين المصريين. نصحه أحدهم بالذهاب إلى ألمانيا والانتساب إلى جامعة ميونيخ. آنذاك كانت عملية إعادة الإعمار قائمة على قدم وساق في ألمانيا التي دمرتها الحرب. وقد نصحه مُرشدُه: «إذا أردت أن ترى التخطيط الحضري وهندسة المستقبل فهناك!». وهناك عاش مخلوف أربع سنوات طالباً في جامعة ميونخ حيث نال شهادة الماجستير. وجديتهم. كانوا يعرفون ماذا الذي يريدون وكيف يصلون إلى الهدف المحدد. كما تأثر بحماية الناس المشاركين في أشغال إعادة الإعمار و الاهتمام الذي يولونه لإعادة بناء مدنهم كما كانت قبل الحرب. وقرّ في ذهني أن تلك التجربة قد وسمته بطابعها يشهد على ذلك عمله عندنا. سرعان ما عيّنته رئيساً لدائرة تخطيط المدن، وهو منصب شغله بكفاءة عالية شرفه بها. كان يرى أن عاصمتنا يجب أن تكون قادرة على استيعاب 250 ألف ساكن، ومقرها لوس أنجلوس. في موازاة ذلك نجحت في إحاطة نفسي بشخصيات ذات كفاءة عالية، أمثال الدكتور عدنان الباجه جي. ثم عُيّن سفيراً لدى الأمم المتحدة. عاش في المنفى بعد عام 1971 ولجأ إلينا. ونظراً لما يتمتع به من مكانة وخبرة دبلوماسية، وللعلاقات الواسعة التي نسجها على المستوى الدولي خلال حياته المهنية، عزيزة علي، رافقتني أيضاً في مسيرتي الطويلة. تقاطعت طريقها مع طريقي بمحض المصادفة للمرة الثانية. لكن ما المصادفة إن لم تكن مشيئة الله الخفية؟ أؤكد : للمرة الثانية»، هو ابن السفير، وكان يُعد رسالة لنيل الماجستير في الاقتصاد. من أصل فلسطيني، وقد ولد في القدس. بعد حرب 1967 لم يعد بإمكانه العودة إلى بلاده، فقرّر القدوم إلينا للعمل في مؤسسة بناء عائلية صغيرة أنشئت حديثاً. ومنها صحيفة الفايننشال تايمز وفي أبريل 1968 اتصل بي فريق

إنجليزي يعد لعمل وثائقي ويرغب في إجراء مقابلة معي. هكذا التقينا للمرة الثانية. غير أن وجهه كان يوحي لي بسابق معرفة، ومن كان أبوه. هذا اللقاء الذي كان مفترضاً ألا يتعدى الساعة الواحدة امتد لست وثلاثين سنة. ومستشاري، وأحد أصدقائي المقربين بوجه خاص. يوماً بعد يوم كنت أرى أرضنا تُغير وجهها. طرق الأسفلت تحل محل مسارات الرمال. في الباطن حل المطار الذي كنا في أمس الحاجة إليه مكان المعقل والشريط الرملي الذي كان يستخدم كمدرج للهبوط ومطار، لن يتأخر في الخروج من الرمال. وعلى طرف شمال-شرق الجزيرة يوشك أن يظهر مرفأً جديد والممر المعبد بالحجارة والطين المجفّف الذي أمرت ببنائه في المقطع قبل بضع سنوات لم يعد سوى ذكرى يمتد مكانه اليوم جسر رائع بطول ثلاثمائة متر، ونسجت في ظلالها ذكريات وملاحم وحكايات. والمدارس الأولى للبنين، المدارس الأولى للبنات. كلها تقدم بالمجان. خصصت لكل منهم ستة دولارات يومياً. آخر بمواصفات دولية، لن يتأخر في الخروج من الرمال. وعلى طرف شمال-شرق الجزيرة يوشك أن يظهر مرفأً جديد والممر المعبد بالحجارة والطين المجفّف الذي أمرت ببنائه في المقطع قبل بضع سنوات لم يعد سوى ذكرى يمتد مكانه اليوم جسر رائع بطول ثلاثمائة متر، ونسجت في ظلالها ذكريات وملاحم وحكايات. والمدارس الأولى للبنين، المدارس الأولى للبنات. ومطعم التلاميذ والكتب المدرسية، كلها تقدم بالمجان. مراكز تجارية وسفارات تفتح أبوابها. وقصر العدل، والمجمع الرياضي، ومؤسسة ثقافية شبكات الكهرباء والماء، والهاتف، وهذا الرقم سوف يتضاعف أربع مرات في غضون عشرين سنة. يوماً ما، الأمية، المرض، التي تعاودني بلا انقطاع: «من الآن فصاعداً أنت تملك السلطة لرفع مكانة بلادنا إلى أعلى ذرى المعرفة والتقدم أقدم، متاحف جامعات. وكل منها ساهم بطريقته، نهضة بلادي. لم يكونوا من كبار المهندسين، ولا الخبراء، من يتذكر ماما زليخة؟ واسمها الحقيقي الدكتورة زليخة داوود. كانت أول طبيبة هندية تأتي للعمل عندنا. لم تكن قد سمعت بالمنطقة قبل أن تحط بها الطائرة على مدرج الهبوط الرملي ل سلاح الجو البريطاني في الشارقة. كان ذلك في عزّ الصيف في 20 أغسطس 1964، «كان الطقس حاراً جداً، قبل ذلك كانت هي وزوجها يعملان في مستشفى البعثة الأمريكية في الكويت. تداوي أصابع الصيادين التي اخترقتها الصنارات، شربوا الكيروسين خطأ. وكان عليها أن تواجه كل الحالات الطبية الطارئة: ولادة لدغ الأفاعي كسور، التهاب الرئة. في الحقيقة لم يكن لديها إلا القليل من الأدوات التي تسمح بتشخيص صحيح للمرض فكانت تعتمد على حدسها بوجه خاص. بارك الله ماما زليخة. وكيف أنسى الدكتورة فروك هيرد بك، تلك السيدة الكبيرة، التي حملتها ريح طيبة إلى شواطئنا عام 1967؟ بعد دراسة باهرة في برلين تزوجت وتبعته زوجها، دافيد هيرد، مهندس البترول الذي جاء لاستكشاف آبارنا. كنت قرّرت للتو إنشاء مركز الوثائق والبحوث بغية جمع كل الكتابات المتعلقة بتاريخ بلادنا والخليج عامة. ورأيت أن من الضروري أن تحتفظ الأجيال الجديدة بأثر من ماضينا. ونظراً لعدم وجود مكان مناسب اخترت لهذا المركز جناحاً كبيراً في قصر الحصن. في الحقيقة كانت فكرة إنشاء هذا المركز بإحياء من المؤرخ المصري الدكتور محمد مرسى عبد الله الذي كان يعمل آنذاك في الدوحة بقطر. عام 1966 كان في لندن حيث دعي للمشاركة في ندوة نظمها عدد كبير من المستشرقين الذين كان يقلقهم انسحاب البريطانيين قريباً من الخليج. في أثناء إقامته هذه علم أن مكتبة مكتب الهند جمعت آلاف الوثائق والمعاهدات والمراسلات المتعلقة بمنطقة. على الفور خطرت للدكتور عبد الله فكرة: «لماذا لا يُنشأ هذا النوع من المكتبات في أبوظبي؟». عرض فكرته على أحد أصدقائي الذي كان في الوقت نفسه من معاوني المقربين: أحمد خليفة السويدي، لم تكن الثقافة كلمة بسيطة في نظره بل كانت وظيفته، أدرك السويدي على الفور أهمية هذا المشروع. عرضه جداً علي فوافقت في البداية كان هذا المركز - المتواضع - مؤلفاً من الدكتور عبد الله وثلاثة موظفين فقط، بما فيهم مقدم القهوة. وكان مكتبي ومكتب السويدي متلاصقين تقريباً. تصادف فيه بدأ يحملون صقورهم على قبضاتهم، وجمالين، وسياسيين أجانب وياسر عرفات أو ليلي خالد، وطلاب حاجات بوجه خاص ينتظرون أن أستقبلهم. وكان بعض الزوّار يستعصرون كتباً ثم يختفون عن الأنظار. درست التاريخ كتبت رسالتها للدكتوراه عن مصير برلين أثناء الاضطرابات السياسية التي أعقبت الحرب العالمية الأولى. قيل لها إنها يمكن أن تجد في المركز معلومات عن مرحلة الإمارات المتصالحة فذهبت إليه وسألت الدكتور عبد الله إن كان يسمح لها بمراجعة الكتب الموجودة فوافق من دون تردد. كيف لا وهو لا يستقبل كل يوم مؤرخة مثلها، ما عدت أدري أفي ذلك اليوم أو بعد فترة اقترحت أن تفرز المؤلفات وتصنّفها. لم يُسعد الاقتراح الدكتور عبد الله فحسب بل خصص لها مرتباً، حتى أنها لا تذكر اليوم مقداره. هكذا كرّست نفسها لهذه المهمة مقيمة علاقات يوم مع علمت مكتبات عامة عالمية مثل مكتبة الكونغرس. ذات أن دار المحفوظات في القاهرة تحتوي على وثائق نفيسة تسرد وقائع الحملة العسكرية التي شنّها محمد علي، نائب السلطان في مصر، لا شك في أن الأمر يتعلق بوثائق مهمة جداً لمن يهتم بتاريخ الخليج. أحالت الأمر على بحاثه إماراتي يُدعى علي التاجر كان يعمل معها في المركز. لماذا؟ بكل بساطة لأن دار

المحفوظات لم تكن تمتلك آلة ناسخة. كانت حرب الأيام الستة قد مرّت من هنا وقررت مصر مقاطعة كلّ المنتجات الأمريكية باعتبار أمريكا حليفة دائمة لإسرائيل – ومن بينها المنتجات التي تصنعها شركة كزيروس المشهورة وآلاتها الناسخة. أقنعنا بشراء الآلة الناسخة وتقديمها هدية إلى دار المحفوظات المصرية في القاهرة بعد الحصول على موافقتنا بقي هذا الرجل الخدوم في العاصمة المصرية ينتظر بفارغ الصبر تسليم الآلة. ثم تولى بنفسه تصوير جميع الوثائق، واحدة واحدة، على مدى السنوات السبع والعشرين اللاحقة كان قصر الحصن يعد المنزل الثاني للسيدة هيرد بك. بفضل هذه المرأة المدهشة، إلى مؤسسة الأرشيف الوطني. إن أناساً مثلها، أشخاصاً استثنائيين، أذكر أن الشيخ زايد جاء لزيارتنا في المركز ودعانا لتناول الغداء معه. وأنا فرك هيرد بك المرأة الوحيدة الحاضرة، كان مضيفاً لطيفاً ومتحدثاً طريفاً. يهتم كثيراً بالطباء و الحيوانات عامة وسُرّ بمعرفة أن زوجي يحتفظ بببضتين في حديقة منزلنا. في ما بعد أنشأ حديقة حيوانات في العين وأشرف شخصياً على إغنائه. أنا وزوجي في مناسبة عيد الفطر نهاية شهر رمضان.